دور رحلة الحج في نشر الإسلام في غرب إفريقيا

د. وائل نبيل إبراهيم عثمان [1]

مقدمة:

تعد رحلة الحج من العوامل الرئيسية التي أسهمت في نشر الدين الإسلامي في غرب إفريقيا، حيث أتاحت للحجيج فرصة الاحتكاك بغيرهم من الشعوب الأخرى في بلاد الحجاز، والتزود من العلم النافع، فنهلوا من علم العلماء وتأثروا بهم، ثم رجعوا لنشر ما تعلموه في مجتمعاتهم، ومن هؤلاء حكَّام مملكة مالي ومنهم موسى ديجيو، ومنسا موسى، وملوك مملكة الصنغاي التي خلفت مالي، ومن أشهرهم أسكيا الحاج محمد الأول، وهناك العديد من الملوك والأمراء والعلماء الذين قاموا برحلة الحج من غرب إفريقيا، بهدف أداء الفريضة، وتحصيل العلم الديني الصحيح من خلال لقائهم بعلماء الحجاز، ثم نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة في بلادهم.

ومن علماء غرب إفريقيا الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج، وتأثروا بعلماء الحجاز الشيخ جبريل بن عمر، الذي حج مرتين، وأقام فترة طويلة في الأراضي المقدسة، بهدف تعلم العلم الديني، ثم القيام بنشره، والدعوة إليه في بلده عقب عودته. وقد تأثر به تلميذه الشيخ عثمان بن فودي أيما تأثير، فنادى بتطبيق السنة والقضاء على البدعة من خلال مؤلفاته الشعرية والنثرية، كما سيتضح بالتفصيل في هذا البحث، ومنهم كذلك الشيخ عمر الفوتي الذي تأثر بحركة الشيخ عثمان الإصلاحية، وغيره الكثير والكثير.

يهدف هذا البحث إلى تناول دور رحلة الحج في نشر الإسلام في غرب إفريقيا من خلال عرض نماذج للزعماء والعلماء البارزين، الذين حرصوا على أداء فريضة الحج، وتأثروا بالدعوة السلفية التي كانت منتشرة في بلاد الحجاز آنذاك، ثم عادوا إلى بلادهم، عازمين على نشر ما تعلموه من عقيدة صحيحة خالية من البدع، فكان لدعوتهم عظيم الأثر على أفراد المجتمع، وكان من ثمرات دعوتهم أن اعتنق عدد كبير من غير المسلمين الدين الإسلامي، وأقلع كثير من المسلمين عن العادات الشركية، التي كانوا يقومون بها عن جهل.

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي، الذي هو من أوسع مناهج البحث، وأكثرها انتشاراً واستعمالاً في مثل هذا النوع من البحوث، وفيه يتعامل الباحث مع مغزى المعلومات الكامنة في التاريخ وأهميتها. ولما كان التاريخ مجموعة من الظواهر والأنشطة البشرية والإنسانية، كان على الباحث أن يقوم بدراستها وفحصها وتقصي معلوماتها وربطها ببعضها، ثم إيجاد التفسيرات المناسبة والمنطقية لها واستخلاصها (العزاوي: ٢٠٠٨: ٢٢). ومن ثمَّ فقد عرض هذا البحث لدراسة دور رحلة الحج في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، موضحاً إسهام الزعماء والعلماء في ذلك.

أثر رحلة الحج في زعماء غرب إفريقيا:

من أشهر زعماء غرب إفريقيا موسى ديجيو الذي حكم مملكة مالي من ٥٩٧ إلى ٦١٥، واتخذ مدينة (غارب) التي تقع على نهر النيجر إلى الجنوب من (باماكو) عاصمة له، وقضى حياته بالعمل الصالح

---

[1]) دكتور محاضر بقسم اللغات الإفريقية كلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر مصر

والتقوى، وربما كان هو المشهور في الكتب العربية باسم (برمندان)، وقال بعض المؤرخين: أن هذا الرجل كان أول من دخل الإسلام من ملوك مالي (شاكر: ٢٠٠٠: ٣٠٣)، وذكر ابن خلدون أن موسى ديجيو قد حج إلى مكة المكرمة، واقتفى سننه في الحج ملوك مالي من بعده، ولما مات خلفه منسا أو ومنسى ولى – وهي بلغة الماندي السلطان أو ملك الملوك علي – فكان من أعاظم حكام مالي، وقد أدى فريضة الحج أيام الظاهر بيبرس (ابن خلدون: ٢٠٠٠: ٢٦٦، ٢٦٧).

والذي ذاع صيته من ملوك مالي هو منسا موسى، الشهير بكنكن موسى، نسبة إلى أمه حيث اشتهرت بعض القبائل بنسبة الابن إلى أمه (الكرباسي: ٢٠١٠: ٢٥٠)، وهو سلطان مالي الإسلامية الذي قام برحلته الشهيرة إلى الحج على رأس موكب كبير عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م، وكانت هذه الرحلة سبباً في جذب أنظار العالم الإسلامي إلى مالي، وعند عودته من الحج جلب معه التجار والعلماء والفقهاء إلى دولته، وبدأت تفد عليه أعداد وفيرة من مختلف الأقطار، ومن الذين جلبهم منسا موسى معه أبا إسحاق الساحلي، وهو مهندس وشاعر أندلسي، وهو أول من أدخل إلى مالي نظام البناء بالطوب المحروق، وكذلك نظام السقوف المسطحة للمنازل والمآذن هرمية الشكل، وأشرف على بناء مساجد غاو وتمبكتو (بازينة: ٢٠١٠: ١٥٧)، وأصبح هذا السلطان من دعاة الإسلام، حيث امتد بدولته إلى مدينة جاو في النيجر، بل اخترق الصحراء وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوباً (إبراهيم: ١٩٩٠: ٣٠).

ويُذكر أن منسا موسى قد أخذ معه في رحلته إلى الحج كميات هائلة من الذهب، تُقدر بمائة جمل، واصطحب معه زوجته المفضلة وخدمها، وستين ألف شخص من رعاياه، بما فيهم الوزراء والقادة والعلماء والأتباع (انظر الشكل رقم١)، وكان كل يوم جمعة يبني مسجداً في المكان الذي تتوقف فيه قافلته. وفي الحجاز أدى منسا موسى فريضة الحج، وأفاض على الحجيج وأهل الحرمين الشريفين، كما زار المدينة المنورة. ومكث ثلاثة أشهر بالحجاز بعد انتهاء فريضة الحج، وكانت مصر آنذاك المحطة التي يتوقف عندها الحجيج القادمون من غرب إفريقيا(انظر الشكل رقم ٢)، وشمالها في طريقهم إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، ومن ثمَّ ففي طريق عودة منسا موسى، أقام فترة من الزمن بالقاهرة، واشترى العديد من الكتب الإسلامية، التي تتناول الحديث عن المذهب المالكي، وهو المذهب المنتشر في البلاد. كما التقى في طريق عودته بالفقيه أبي عبد الله الكومي الموحدي في غدامس، فاصطحبه معه إلى مالي ليفيد من ثقافته وخبرته (باري: ٢٠٠٧: ٨٢– ٨٥).

وبعد ذلك تولى سليمان أخو منسا موسى الحكم عام ١٣٤١م، ودام حكمه حتى عام ١٣٦٠م، وقام بأداء فريضة الحج عام ١٣٥٢م، وقدَ اتسم بالتقوى والصلاح والتفقه في الدين، وجلب إلى بلده عدداً من أئمة المذهب المالكي الذي ينتمي إليه، وبنى المساجد والمنارات، واستطاع أن يعيد معظم البقاع التي خرجت عن طاعة المملكة. أما على الصعيد الخارجي، فقد أقام علاقات ودية مع سلاطين المغرب (باري: ٢٠٠٧: ٨٥).

وكذلك قام ملوك مملكة الصنغاي التي خلفت مالي بأداء فريضة الحج، ومن أشهرهم أسكيا الحاج محمد الأول، الذي قام بأداء فريضة الحج سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م (بازينة: ٢٠١٠: ١٥٧). وعندما رجع من أداء فريضته، أعلن الجهاد، واتجه إلى قبائل (الموسى) الوثنية، وطلب من أمرائهم الدخول في الإسلام

أو دفع الجزية، فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم، وتقدم نحو الغرب حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي، إذ ضم بلاد الماندينجو، وبلاد الفولاني إليه، ووصل في ناحية الشرق إلى بحيرة تشاد، ومن جهة الشمال وصل إلى الصحراء (شاكر: ٢٠٠٠: ٣٠٨). وكان له جهد كبير في نشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه (الماندنجو) و(الفلاني) في الغرب، والطوارق البربر في الشمال والهوسا في الجنوب(محمد: ٢٠٠١: ٣٥).

وتجدر الإشارة إلى أن أسكيا محمد عندما ذهب إلى بيت الله الحرام، اصطحب معه خمسمائة فارس، وألف جندي، وحمل معه ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب (انظر شكل رقم ٣، ٤)، وقد استقبله شريف مكة من أسرة الحسنيين استقبالا كريماً، ومنحه لقب خليفة، وعاد أسكيا محمد إلى بلاده، وقد ازداد حماسة للإسلام (مؤنس: ١٩٨٧: ٣٧٥).

وكان من أثر رحلته إلى الحج أن نهض بتطبيق الشريعة الإسلامية على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية، وكرَّس معظم وقته ونشاطه لإقامة المدارس التي تخرج منها الفقهاء وأهل اللغة ورجال الثقافة الإسلامية بصفة عامة. وشيَّد عروة الصداقة بين إمبراطوريته ودول شمال إفريقيا، مما شجع تدفق العلماء من تلك المنطقة من أمثال المغيلي إلى دولته، واشتراكهم في تعميم الثقافة الإسلامية على السكان في منطقة السودان الغربي والأوسط. كما مكَّن العلماء من تكوين طبقة خاصة بهم، ومن إيجاد مراكز الثقافة الإسلامية وانتعاشها في مدن تمبكتو وجيني وكاتسينا وكانو وصكتو إلى آخره (باري: ٢٠٠٠: ٤٦، ٤٧).

دور رحلة الحج في نشر الإسلام في غرب إفريقيا

د. وائل نبيل إبراهيم عثمان [٢]

مقدمة:

تعد رحلة الحج من العوامل الرئيسية التي أسهمت في نشر الدين الإسلامي في غرب إفريقيا، حيث أتاحت للحجيج فرصة الاحتكاك بغيرهم من الشعوب الأخرى في بلاد الحجاز، والتزود من العلم النافع، فنهلوا من علم العلماء وتأثروا بهم، ثم رجعوا لنشر ما تعلموه في مجتمعاتهم، ومن هؤلاء حكَّام مملكة مالي ومنهم موسى ديجيو، ومنسا موسى، وملوك مملكة الصنغاي التي خلفت مالي، ومن أشهرهم أسكيا الحاج محمد الأول، وهناك العديد من الملوك والأمراء والعلماء الذين قاموا برحلة الحج من غرب إفريقيا، بهدف أداء الفريضة، وتحصيل العلم الديني الصحيح من خلال لقائهم بعلماء الحجاز، ثم نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة في بلادهم.

ومن علماء غرب إفريقيا الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج، وتأثروا بعلماء الحجاز الشيخ جبريل بن عمر، الذي حج مرتين، وأقام فترة طويلة في الأراضي المقدسة، بهدف تعلم العلم الديني، ثم القيام بنشره، والدعوة إليه في بلده عقب عودته. وقد تأثر به تلميذه الشيخ عثمان بن فودي أيما تأثير، فنادى بتطبيق

---

[٢]) دكتور محاضر بقسم اللغات الإفريقية كلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر مصر

السنة والقضاء على البدعة من خلال مؤلفاته الشعرية والنثرية، كما سيتضح بالتفصيل في هذا البحث، ومنهم كذلك الشيخ عمر الفوتي الذي تأثر بحركة الشيخ عثمان الإصلاحية، وغيره الكثير والكثير.

يهدف هذا البحث إلى تناول دور رحلة الحج في نشر الإسلام في غرب إفريقيا من خلال عرض نماذج للزعماء والعلماء البارزين، الذين حرصوا على أداء فريضة الحج، وتأثروا بالدعوة السلفية التي كانت منتشرة في بلاد الحجاز آنذاك، ثم عادوا إلى بلادهم، عازمين على نشر ما تعلموه من عقيدة صحيحة خالية من البدع، فكان لدعوتهم عظيم الأثر على أفراد المجتمع، وكان من ثمرات دعوتهم أن اعتنق عدد كبير من غير المسلمين الدين الإسلامي، وأقلع كثير من المسلمين عن العادات الشركية، التي كانوا يقومون بها عن جهل.

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التاريخي، الذي هو من أوسع مناهج البحث، وأكثرها انتشاراً واستعمالاً في مثل هذا النوع من البحوث، وفيه يتعامل الباحث مع مغزى المعلومات الكامنة في التاريخ وأهميتها. ولما كان التاريخ مجموعة من الظواهر والأنشطة البشرية والإنسانية، كان على الباحث أن يقوم بدراستها وفحصها وتقصي معلوماتها وربطها ببعضها، ثم إيجاد التفسيرات المناسبة والمنطقية لها واستخلاصها (العزاوي: ٢٠٠٨: ٢٢). ومن ثمَّ فقد عرض هذا البحث لدراسة دور رحلة الحج في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، موضحاً إسهام الزعماء والعلماء في ذلك.

أثر رحلة الحج في زعماء غرب إفريقيا:

من أشهر زعماء غرب إفريقيا موسى ديجيو الذي حكم مملكة مالي من ٥٩٧ إلى ٦١٥، واتخذ مدينة (غارب) التي تقع على نهر النيجر إلى الجنوب من (باماكو) عاصمة له، وقضى حياته بالعمل الصالح والتقوى، وربما كان هو المشهور في الكتب العربية باسم (برمندان)، وقال بعض المؤرخين: أن هذا الرجل كان أول من دخل الإسلام من ملوك مالي (شاكر: ٢٠٠٠: ٣٠٣)، وذكر ابن خلدون أن موسى ديجيو قد حج إلى مكة المكرمة، واقتفى سننه في الحج ملوك مالي من بعده، ولما مات خلفه منسا أو ومنسى ولى – وهي بلغة الماندي السلطان أو ملك الملوك علي – فكان من أعاظم حكام مالي، وقد أدى فريضة الحج أيام الظاهر بيبرس (ابن خلدون: ٢٠٠٠: ٢٦٦، ٢٦٧).

والذي ذاع صيته من ملوك مالي هو منسا موسى، الشهير بكنكن موسى، نسبة إلى أمه حيث اشتهرت بعض القبائل بنسبة الابن إلى أمه (الكرباسي: ٢٠١٠: ٢٥٠)، وهو سلطان مالي الإسلامية الذي قام برحلته الشهيرة إلى الحج على رأس موكب كبير عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م، وكانت هذه الرحلة سبباً في جذب أنظار العالم الإسلامي إلى مالي، وعند عودته من الحج جلب معه التجار والعلماء والفقهاء إلى دولته، وبدأت تفد عليه أعداد وفيرة من مختلف الأقطار، ومن الذين جلبهم منسا موسى معه أبا إسحاق الساحلي، وهو مهندس وشاعر أندلسي، وهو أول من أدخل إلى مالي نظام البناء بالطوب المحروق، وكذلك نظام السقوف المسطحة للمنازل والمآذن هرمية الشكل، وأشرف على بناء مساجد غاو وتمبكتو (بازينة: ٢٠١٠: ١٥٧)، وأصبح هذا السلطان من دعاة الإسلام، حيث امتد بدولته إلى مدينة جاو في النيجر، بل اخترق الصحراء وتوغل في المنطقة الاستوائية جنوباً (إبراهيم: ١٩٩٠: ٣٠).

ويُذكر أن منسا موسى قد أخذ معه في رحلته إلى الحج كميات هائلة من الذهب، تُقدر بمائة جمل، واصطحب معه زوجته المفضلة وخدمها، وستين ألف شخص من رعاياه، بما فيهم الوزراء والقادة والعلماء والأتباع (انظر الشكل رقم١)، وكان كل يوم جمعة يبني مسجداً في المكان الذي تتوقف فيه قافلته. وفي الحجاز أدى منسا موسى فريضة الحج، وأفاض على الحجيج وأهل الحرمين الشريفين، كما زار المدينة المنورة. ومكث ثلاثة أشهر بالحجاز بعد انتهاء فريضة الحج، وكانت مصر آنذاك المحطة التي يتوقف عندها الحجيج القادمون من غرب إفريقيا(انظر الشكل رقم ٢)، وشمالها في طريقهم إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، ومن ثمَّ ففي طريق عودة منسا موسى، أقام فترة من الزمن بالقاهرة، واشترى العديد من الكتب الإسلامية، التي تتناول الحديث عن المذهب المالكي، وهو المذهب المنتشر في البلاد. كما التقى في طريق عودته بالفقيه أبي عبد الله الكومي الموحدي في غدامس، فاصطحبه معه إلى مالي ليفيد من ثقافته وخبرته (باري: ٢٠٠٧: ٨٢– ٨٥).

وبعد ذلك تولى سليمان أخو منسا موسى الحكم عام ١٣٤١م، ودام حكمه حتى عام ١٣٦٠م، وقام بأداء فريضة الحج عام ١٣٥٢م، وقدَ اتسم بالتقوى والصلاح والتفقه في الدين، وجلب إلى بلده عدداً من أئمة المذهب المالكي الذي ينتمي إليه، وبنى المساجد والمنارات، واستطاع أن يعيد معظم البقاع التي خرجت عن طاعة المملكة. أما على الصعيد الخارجي، فقد أقام علاقات ودية مع سلاطين المغرب (باري: ٢٠٠٧: ٨٥).

وكذلك قام ملوك مملكة الصنغاي التي خلفت مالي بأداء فريضة الحج، ومن أشهرهم أسكيا الحاج محمد الأول، الذي قام بأداء فريضة الحج سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م (بازينة: ٢٠١٠: ١٥٧). وعندما رجع من أداء فريضته، أعلن الجهاد، واتجه إلى قبائل (الموسى) الوثنية، وطلب من أمرائهم الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم، وتقدم نحو الغرب حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي، إذ ضم بلاد الماندينجو، وبلاد الفولاني إليه، ووصل في ناحية الشرق إلى بحيرة تشاد، ومن جهة الشمال وصل إلى الصحراء (شاكر: ٢٠٠٠: ٣٠٨). وكان له جهد كبير في نشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه (الماندنجو) و(الفلاني) في الغرب، والطوارق البربر في الشمال والهوسا في الجنوب(محمد: ٢٠٠١: ٣٥).

وتجدر الإشارة إلى أن أسكيا محمد عندما ذهب إلى بيت الله الحرام، اصطحب معه خمسمائة فارس، وألف جندي، وحمل معه ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب (انظر شكل رقم ٣، ٤)، وقد استقبله شريف مكة من أسرة الحسنيين استقبالا كريماً، ومنحه لقب خليفة، وعاد أسكيا محمد إلى بلاده، وقد ازداد حماسة للإسلام (مؤنس: ١٩٨٧: ٣٧٥).

وكان من أثر رحلته إلى الحج أن نهض بتطبيق الشريعة الإسلامية على هدي القرآن الكريم والسنة النبوية، وكرَّس معظم وقته ونشاطه لإقامة المدارس التي تخرج منها الفقهاء وأهل اللغة ورجال الثقافة الإسلامية بصفة عامة. وشيَّد عروة الصداقة بين إمبراطوريته ودول شمال إفريقيا، مما شجع تدفق العلماء من تلك المنطقة من أمثال المغيلي إلى دولته، واشتراكهم في تعميم الثقافة الإسلامية على السكان في منطقة السودان الغربي والأوسط. كما مكَّن العلماء من تكوين طبقة خاصة بهم، ومن إيجاد مراكز الثقافة الإسلامية وانتعاشها في مدن تمبكتو وجيني وكاتسينا وكانو وصكتو إلى آخره (باري: ٢٠٠٠: ٤٦، ٤٧).

شكل رقم (١)

يوضح صورة لمنسا موسى

وسط رعاياه

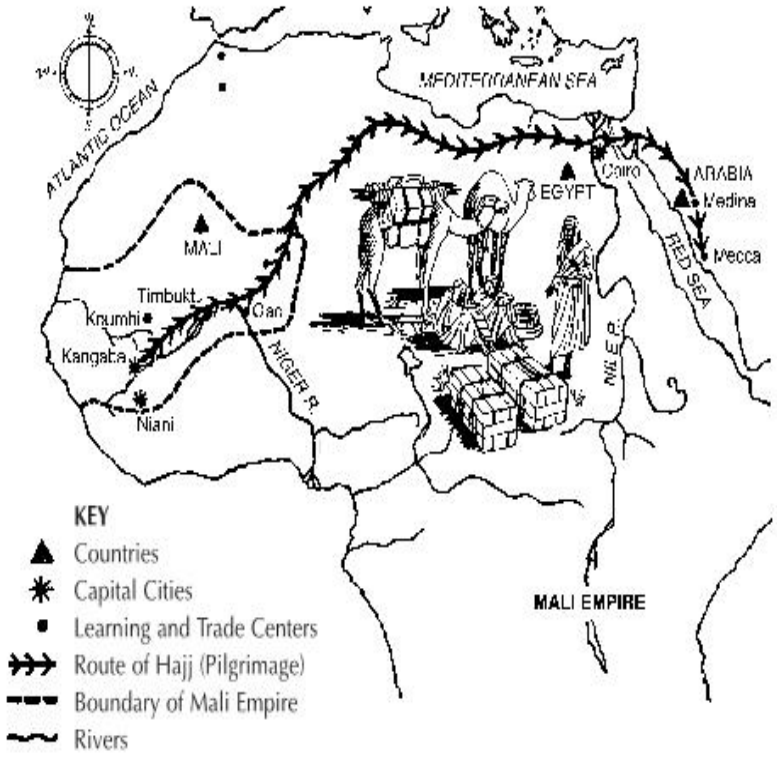
ATLANTIC OCEAN
MEDITERRANEAN SEA
EGYPT
Cairo
ARABIA
Medina
Mecca
RED SEA
MALI
Timbukt
Gao
Krumhi
Kangaba
Niani
NIGER R.
NILE R.
MALI EMPIRE
KEY
Countries
Capital Cities
Learning and Trade Centers
Route of Hajj (Pilgrimage)
Boundary of Mali Empire
Rivers

شكل رقم (٢)

وهو عبارة عن خريطة توضح المسار الذي اتبعه الحجاج من مملكة مالي والصنغاي ومن بعدهم، حيث كانوا يتجهون نحو شاطئ إفريقيا الشمالية، ومن هناك يمرون بمصر، متجهين إلى مكة لأداء فريضة الحج.

شكل رقم (٣)

صورة أسكيا محمد

شكل رقم (٤) صورة لقبر أسكيا محمد

أثر رحلة الحج في علماء غرب إفريقيا:

حرص العديد من علماء غرب إفريقيا على الذهاب إلى بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج ومخالطتهم لأقرانهم من علماء الحجاز، مما كان له عظيم الأثر في نفوسهم، وقد انعكس هذا الأثر على دعوتهم بعد عودتهم إلى بلادهم، فكان لهم دور كبير في نشر الإسلام، معتمدين على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكان من أبرزهم الشيخ عثمان بن فودي، والشيخ عمر بن سعيد الفوتي،... وغيرهما الكثير.

الشيخ عثمان بن فودي:

من أبرز العلماء الذين أسهموا في نشر الدين الإسلامي، وتعاليمه الصحيحة في غرب إفريقيا– الشيخ عثمان بن محمد بن عثمان، ووالده محمد الملقب بـ (فودي) . ومعناه في اللغة الفولانية "الفقيه" . ينتمي إلى قبيلة فولانية تسمى توردوبي Torud□□e، وهي إحدى القبائل الفولانية التي هاجرت من فوتاتورو إلى أن وصلت تدريجياً بعد سنين إلى جوبيرGober؛ إحدى ولايات الهوسا، واستقرت هناك، حيث ولد الشيخ عثمان في أواخر صفر سنة ١١٦٨هـ الموافق ديسمبر سنة ١٧٥٤م (غلادنت:١٩٨٢: ٦٠،٦١).

رحلة الشيخ عثمان إلى الحج وأثرها في حياته الدعوية:

اختلف الباحثون فيما إذا كان الشيخ قد تأثر بالدعوة السلفية بشكل مباشر أثناء قيامه برحلة الحج وزيارته للأراضي المقدسة، أو أنه قد تأثر بها بشكل غير مباشر من خلال تلقيه العلم على يد أستاذه الشيخ جبريل بن عمر، حيث إن بعض المصادر تكاد تجمع على أن الشيخ عثمان بن فودي قد حج إلى بيت الله الحرام، والتقى ببعض رجال الدعوة السلفية حين خضوع الحجاز للدولة السعودية الأولى، خلال الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري، وتأثر بمبادئ الدعوة السلفية، وهناك مصادر أخرى تنكر ذهابه إلى مكة أصلا، في حين يعترف أولئك المنكرون بأن أستاذه الشيخ جبريل بن عمر قد أدى فريضة الحج مرتين، والتقي ببعض رجال الدعوة السلفية وتأثر بمبادئها(سعد:١٩٨٣: ٤٤١).

وتقول إلهام محمد علي ذهني أن لوثروب ستودارد Lothrop Stodard أيضا أكد في كتابه "حاضر العالم الإسلامي" على التقاء عثمان بالوهابيين في موسم الحج، وأوضح مدى تأثره بهم، وكذلك أكد توماس أرنولد Thomas Arnold في كتابه "الدعوة إلى الإسلام"، على تأثر الشيخ عثمان بالوهابيين، أثناء زيارته إلى مكة، كما أكد على هذا حسن إبراهيم حسن في كتابه "انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء"، ولكن هذا لا يمنع وجود آراء معارضة مثل همفري فيشر Humphery Fisher، ومورايلاست Murray Last، اللذين أنكرا هذا التأثر، بل حاول لاست طمس ذهاب عثمان إلى مكة أساسا، في حين يعترف فيشر بأن جبريل أستاذ عثمان بن فودي قد ذهب إلى مكة لأداء الفريضة مرتين وتأثر بمبادئ الوهابيين، فإذا كان قد اعترف بتأثر جبريل أستاذ عثمان بمبادئ الوهابية، فما الذي يمنع من تأثر عثمان نفسه. والرأي المرجح أن الشيخ عثمان قد تأثر بالدعوة الوهابية أثناء فترة إقامته في مكة، وذلك لأنه خلال هذه الفترة كانت الدعوة الوهابية نشطة في الحجاز حتى قبل سقوط الحجاز في يد الدولة السعودية الأولى ١٨٠٥م، وقد أكد عبد الله بن محمد شقيق الشيخ عثمان، في كتابه "تزيين

الورقات" بأن عثمان ذهب إلى الحجاز، وعمل بعد عودته على محاربة البدع والعادات المخالفة للشرع (ذهني: ١٩٨٨: ٣٥).

وقد أكد محمد البهي في تقديمه لكتاب الشيخ عثمان بن فودي المعنون بـ "إحياء السنة وإخماد البدعة" على تأثر الشيخ بعلماء الحجاز قائلاً: "عثمان بن فودي هو أحد القلة من العلماء الذين تتلمذوا على كتب ابن تيمية، بعد أن اتصلوا بها في مكة عن طريق ابن عبد الوهاب."(بن فودي: دت: ٢٥-٢٨).

ويوضح عبد الفتاح الغنيمي أن ما سمعه الشيخ عثمان بن فودي من شيخه جبريل بن عمر عن الدعوة الإصلاحية التي انتشرت في أنحاء الجزيرة العربية، كان دافعاً قوياً له على أن يعد الرحال إلى بيت الله الحرام، لكي يؤدي فريضة الحج، ويلم بتعاليم الدعوة الإسلامية، ويلتقي بالعديد من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكانت دعوة التوحيد قد انتشرت في الحجاز منذ عام ١٢١١هـ، ويطلع على كتب شيخها ومنها: رسالة كشف الشبهات، وأصول الإيمان، ومعرفة العبد لربه ونبيه، والمسائل التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية، وفضل الإسلام، ونصيحة للمسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورسالة في أن التقليد جائز لا واجب، وكتاب الكبائر. وبعد أن اطلع على هذه الكتب أيقظت هذه الأفكار الإصلاحية الجديدة في نفسه الرغبة في أن يحارب البدع في بلاده، كما حاربها أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بلادهم (الغنيمي: ١٩٨٣: ٣٥٣، ٣٦٣).

وذكر شيخو أحمد سعيد أن الشيخ عثمان قد أخذ العلم عن أستاذه الشيخ جبريل بن عمر، الذي رحل إلى الحج، وخالط كبار العلماء في الحرمين، ثم رجع إلى بلده وتفرغ للتدريس والوعظ، وقد صاحبه الشيخ عثمان نحو سنة يقرأ عليه ويستمع إلى وعظه وإرشاداته (غلادنت:١٩٨٢: ٦٠،٦١).

وكان الشيخ جبريل بن عمر "شيخ شيوخ زمانه، أخذ عن الشيخ علي حسب والشيخ محمد مرتضى، وعن الأخوين أبي بكر بن الحاج عثمان وعلي بن الحاج عثمان، وحج مرتين، ولقي يوسف الحفناوي والمرتضى وأخذ عنهما. وأخذ عنه الكثيرون منهم الشيخ عثمان بن فودي وعبد الله" (الإلوري: ٢٠١٤: ٩٠، ٩١).

وقد أكد الشيخ عثمان نفسه على تأثره الكبير بشيخه جبريل، قائلاً عنه أنه: "أول من قام بهدم هذه العادات الذميمة في بلادنا السودانية هذه. وكان كمال ذلك ببركة الله على أيدينا... ونحن بالنسبة إلى مقامه نسبة الضلع من الضليع"(غلادنت:١٩٨٢: ٦١)، وفيه يقول عثمان(غلادنت:١٩٨٢: ٦١):

إن قيل فيّ بحسن الظن ما قيلا فموجة أنا من أمواج جبريلا

فمن الملاحظ أن الشيخ عثمان بن فودي شبه نفسه في البيت السابق بموجة من أمواج أستاذه الشيخ جبريل، أي أنه قد تأثر به في دعوته تأثراً كبيراً.

وبناءً عليه، وبعد عرض هذه الآراء- يتفق الباحث تماماً مع ما ذكره مصطفى سعد قائلاً: سواء صح خبر أداء الشيخ عثمان بن فودي لفريضة الحج أم لم يصح، فالواضح أنه تلقى الدعوة السلفية، سواء بشكل مباشر من منبعها الأصلي على أيدي دعاتها في الحجاز، أم على يد أستاذه الشيخ جبريل بن عمر، ومما يقوي هذا الرأي أن هناك تشابه واضح بين ملامح الدعوة السلفية، ودعوة الشيخ عثمان بن فودي، فكلا الدعوتين يتشابهان في: تحقيق التوحيد وتطهير العقيدة، والدعوة إلى الرجوع إلى الكتاب

والسنة، وآثار السلف الصالح ومحاربة البدع، واتخاذ الجهاد في سبيل الله وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية بين الوثنيين والمرتدين، ومن حاد إسلامهم عن الطريق الصحيح، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول الإسلام، وأن كلتا الدعوتين كانتا سبباً في إيقاظ الحياة الفكرية في كلا المجتمعين (سعد:١٩٨٣: ٤٤١).

ويرى الباحث أن المبادئ التي نادى بها الشيخ عثمان في دعوته ما هي إلا دليل واضح، يثبت مدى تأثره بعلماء الحجاز، وقد انعكس هذا التأثر على مؤلفاته الشعرية والنثرية. فيُلاحظ على سبيل المثال لا الحصر أن القصيدة المعلّمة Moodinoore (Abubakar: 1992: 49–63)، التي نظمها الشيخ في أوائل دعوته الإصلاحية عام ١٧٩٢م، تزخر بالعديد من مبادئ الدعوة السلفية، ومن أبرزها تحقيق التوحيد وتطهير العقيدة الإسلامية، عندما بيَّن العادات الشركية التي مارسها بعض أفراد المجتمع من تبرك بالأحجار والأشجار قائلاً:

Wodɗe he maɓɓe yo hubooɓe kootolal To njaali ka'ye juyo nyaande dow ɗatal	٢٢	بعضهم يرمي بيد سكين إذا مر بأحجار وشوك على الطريق
Aw kubanoo ɗe barwalol au nuufoyo Fa'go he tekka ceko tekkay kuuboyo	٢٣	أو يرمي بورقة شجر أو يتجه نحو جدار كبير ويرمي بها (أي بورقة الشجر)
Aw du kosal ɓe cotta aw ko nokki fuu Maa kubanoo ɗon he majje wa tu njaali fuu	٢٤	أو يسحق (شيئاً) بالجرن أو يجمعه أو يلقي به بجهل ويمر عليه
Aw kuboyoo to njaali fottirde ɗate Aw du he les ledɗe ceɓurta itte te	٢٥	أو يرمي (بشيئ) إذا مر بمفترق طرق أو يلقيه تحت الأشجار ويواريه
Aw kubano hayre nde dukki martaba Fa ina juuroyoo nde sabbu jarraba	٢٦	أو يرمي بحجر إلى أعلى ويزوره من أجل الولوع به
Ɓe mooɓoyoo to mayre ton ɓe Kawra Misaalu mayre bano Duutsen Tawra	٢٧	إنهم يجتمعون عليه ويلتقون في كاورا مثله كمثل حجر تورا
Ɓe ciryoyoo ɓe ngayyanoo nde mobgu misaalu mayre bano hayre Baagu	٢٨	إنهم يستعدون ويدعون (بعضهم بعضاً إليه) مثله كمثل حجر باجو
Aw kubano ko laatoyii he tilwa Anan ma bo, yo juulɓe to he selwa	٢٩	أو يرمون به وقد أتو متواليين وتسمع أن المسلمين يجتنبون ذلك

يشير الشيخ عثمان في الأبيات السابقة إلى العادات الشركية، التي انتشرت آنذاك بين أفراد مجتمع غرب القارة الإفريقية، ومنها التبرك بالأحجار والأشجار، فتجدهم مثلا يرمون بيد سكين، أو بحجر، أو ببعض أوراق الشجر، وأحياناً يلتقطون أورق أشجار ويجمعونها تبركاً بها، وكل هذه الطقوس ليس لها أصل في الدين الإسلامي، لما فيها من إشراك بالله، حيث استقر في عقولهم ورسخ في عقيدتهم أن فعلهم هذا يؤثر

في مسار حياتهم سلباً أو إيجاباً. ومن ثم يعقِّب الشيخ عثمان في البيت الأخير، قائلاً إن المسلمين الذين حققوا التوحيد الصحيح، يجتنبون هذه العادات الشركية.

أما فيما يتعلق بالدعوة إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة، فقد نظم الشيخ عثمان قصيدة بعنوان Beege Alkur'aana الالتزام بالقرآن (Abubakar: 1992: 87–89)، مكونة من عشرين بيتاً، وقصيدة أخرى بعنوان Sunna Muhammadu سنة محمد (Abubakar: 1992: 83–87)، مكونة من اثنين وأربعين بيتاً، دعا فيهما إلى ضرورة التمسك بالقرآن والسنة، وقد أكد على ذلك في كتابه المعنون بـ "إحياء السنة وإخماد البدعة"، بعد أن أورد أدلة على وجوب إتباع الكتاب والسنة والإجماع قال: وإذا تحقق وجوب الكتاب والسنة والإجماع بما ذكرناه، فاتبع ذلك وزن أعمالك به، واسأل العالِمين في كل عمل ديني أردته: هل هو سنة فتفعله أو بدعه فتتركه؟" (بن فودي: دت: ١٩).

وهذا قد يعكس مبدأ من أهم مبادئ دعوة الشيخ عثمان، المستمد من الدعوة السلفية، وهو الدعوة إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ومحاربة البدعة. ومن ثمَّ فقد حرص الشيخ عثمان حرصاً شديداً على محاربة البدع والمبتدعين، فترجم ذلك ترجمة شعرية في قصيدته المعنونة بـ Waasuyeeje الوصايا، قائلاً (Abubakar: 1992: 80):

نهى الشيخ عثمان في البيت السابق عن مجرد مجالسة صاحب البدعة المحرمة – مؤكداً على ذلك في كتابه "إحياء السنة وإخماد البدعة"، حيث أفتى فيه بوجوب هجران ذي البدعة المحرمة، التي تناولتها قواعد التحريم، وأدلتها من الشرع، كتقديم الجهَّال على العلماء، وتولية المناصب في ذلك، وكذلك أفتى بجواز هجران ذي البدعة المكروهة التي تناولتها قواعد الكراهة، وأدلتها من الشرع كتخصيص الأيام الفاضلة، وغيرها بنوع من العبادة. (بن فودي: دت: ج).

Taa ɓadu joodɗodaago jom bidi'aaku Salaago gimdɗi ɗi, yo les ko'aaku	لا تقرب مجالسة المبتدع وإنكار هذا النظم دناءة
6	

وفيما يتعلق بالجهاد، فقد دعا الشيخ عثمان إليه، واتخذه وسيلة لنشر الدعوة الإسلامية، متأثراً في ذلك بالدعوة السلفية، حيث نظم قصيدة كاملة أطلق عليها اسم Jihaadi الجهاد، مكونة من سبعة وثمانين بيتاً بخصوص هذا الموضوع، فضلاً عن بعض الأبيات التي أوردها في قصيدته المعلمة قائلاً (Abubakar: 1992: 49–63):

Wadɗaa ma laamotoodɗo diina lammine Lesdi me 'en jihaadi mayri ummine	فلينصب أمير للمؤمنين ليقوم بالجهاد في بلادنا
٥٤	
Ndefaama fudɗiraama jillindirɓe Kufru he iimaanu fuka mbaren ɓe	وليفهموا أن البداية (ستكون) مع المخلطين بين الكفر والإيمان ولنقتلهم جميعاً
٥٥	
Dagga kamɓe njabri goonga baadɗili Ngam fa hi kam ɓe esiroyta jahili	لأنهم قبلوا تغيير الحق إلى باطل وكذلك لأنهم غرُّوا الجاهل
٥٦	

كذلك يقام (الجهاد) على الكافرين	Nden fa kadin ummanoo ɗen heeferɓe	٦١
الذين كانوا في الكفر فقط وليسوا بمسلمين	Wonɓe he kufru tan wonaa yo juulɓe	
وانظر إلى باب الجهاد	Waɗ nazaru he baabuwol Jihaadi	
تجدهم (المخلطين) لا يحاربون مع المسلمين	A tawma ɓe ab'aki to juulɓe taadi	١٠٦
ويحملون عليهم (الحجارة) مثل الكافرين	Ko'ye jogullaaji pa'on heeferɓe	
وفي الشدة يعرف الرجال	Haa Gudu worɓe anndoye yo worɓe	١٠٧

دعا الشيخ عثمان أتباعه في البيت ٥٤، إلى تنصيب أمير للمؤمنين ليقوم بالجهاد ضد جماعة المخلطين والكافرين، كما أشار في البيت رقم ٥٥، ٦١، مبرراً ذلك بأنهم قد قبلوا تغيير الحق وغروا الجاهل بباطلهم، كما أشار في البيت رقم ٥٦. والمقصود بالحق هنا هو الإسلام الخالص الخالي من البدع، فقد غيروه وزادوا عليه وخلطوا به البدع والطقوس والموروثات الإفريقية القديمة، التي ليس لها أصل في الدين الإسلامي، وغروا الجاهل بهذه البدع.

والباحث لم يجد في القرآن ولا في السنة ولا في إجماع علماء الأمة، ما يعضد ويساند ما ذهب إليه الشيخ عثمان من مبررات لإقامة الجهاد على هاتين الفئتين وقتلهم جميعاً كما ذكر في الأبيات رقم (٥٥، ٦١)، ولكنه وجد أن الإسلام لم يشرع الجهاد إلا دفاعا أو تأميناً لطريق الدعوة، وإذا كانت هناك نصوص تدل بظاهرها على الأمر المطلق بالقتال فهناك نصوص أخرى تقيدها (جاد الحق: د.ت: ٣٦٨).

ويُلاحظ أن الشيخ عثمان كان محايداً في حكمه منذ بداية القصيدة، وكلما ذكر فعلاً سيئاً، قام به جماعة المخلطين قال "Wo□□e he ma□□e" أي بعضهم، ولم يعمم حكمه عليهم جميعا، مقتدياً في ذلك بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يستمر على هذا في أبيات القصيدة كلها، حيث جاء في البيت رقم ٥٥، ودعا أتباعه لقتال جماعة المخلطين عن بكرة أبيهم، وكان من الأحرى به أن يبيّن لهم تعاليم الإسلام وسماحته حتى يتجنبوا البدع المخالفة له.

وجدير بالذكر أن الشيخ عثمان قد دعا أتباعه إلى رفع راية الجهاد ضد الكافرين (البيت ٦١)، ولم يجد الباحث بيتاً واحداً في هذه القصيدة، يشير إلى أن الشيخ قد دعا الكافرين إلى الدين الإسلامي، أو أمر أتباعه بدعوتهم إليه قبل أن يأمرهم بجهادهم، على الرغم من أن محمد البخاري ابن الشيخ عثمان بيَّن في قصيدة له منهج والده في الجهاد قائلاً:

فمرهم إذا شئت أن يسلموا	بصدق وإلا بإعطاء مال
وإلا فإنا سنأتيهم	نزج الكتائب مثل الجبال

فمن هذين البيتين نفهم منهج الشيخ عثمان في جهاده للكافرين، فهو يدعوهم إلى الإسلام أولاً، فإن أبوا فدفع الجزية، فإن أبوا قاتلهم، وهو في هذا المنهج مقتد بسلفه الصالح (محمد: ٢٠٠١: ١٠١، ١٠٢).

وأما فيما يتعلق بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد تأثر الشيخ عثمان بالدعوة السلفية في ذلك، حيث دعا إليه، واعتبره أصلاً من أصول الإسلام، وأنكر على من لم يقم به قائلاً:

انظر إلى الأمر بالمعروف وحب المنكر تجده كثيراً	١٦٢	Wadˈnazaru he umruki ko woodi He gitki halleende tawaa ko ɗuudi
ففي هذه البلاد يصمتون ولا يبينون النهي عن المنكر ولا الأمر بالمعروف	١٦٣	He lesdi ndi ɓe njeeɗoyo ɓe cahnata Kadki ko halli, khayru bo ɓe umrata

انتقد الشيخ عثمان حال كثير من أبناء مجتمعه الذين ارتضوا لأنفسهم عدم إنكار المنكر وترك الأمر بالمعروف، فدلَّ ذلك على اهتمام الشيخ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دعوته، وقد أكد على ذلك في كتابه "إحياء السنة وإخماد البدعة،" قائلاً: "يجب على كل عالم ألا يسكت في هذه الأزمنة، لأن البدع قد ظهرت وشاعت فيها. وفي الحديث: إذا ظهرت الفتن وسكت العالم فعليه لعنة الله. وكل من قعد اليوم في البيت أينما كان فليس خالياً عن منكر، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع" (بن فودي: دت: ٢٣٥).

وقد ظهر كذلك أثر الدعوة السلفية بشكل عملي في دعوة الشيخ عثمان الإصلاحية، التي قام بها في غرب إفريقيا، حيث أشار محمد البهي إلى أن الشيخ عثمان قد أراد أن يحقق في القرن الثامن عشر ما دعا إليه ابن تيمية (٧٢٨هـ – ١٣٢٨م) من قبل في القرن الرابع عشر من وجوب الفصل بين الإسلام ومبادئه من جانب، وبين الآراء التي دخلت الجماعة الإسلامية على مر الزمن، واتصلت اتصالاً وثيقاً بتلك المبادئ من جانب آخر، حتى أصبح من العسير أن يميز المسلم بين أصيلها وطارئها، وبين ما هو من الإسلام، وما هو دخيل عليه. وقد سلك الشيخ عثمان في قضية الفصل هذه مسلكاً في غاية التيسير، وفي الوقت نفسه في غاية القوة والوضوح، فعمد في كتاب "إحياء السنة وإخماد البدعة" إلى بيان ماهية السنة التي يجب إتباعها في المجال العملي والتطبيقي للإسلام، وماهية البدعة التي يجب اجتنابها في هذا المجال (بن فودي: دت: ج). ومن ثمَّ كانت دعوة الشيخ عثمان سبباً في إيقاظ الحياة الفكرية، ونشر الدين الإسلامي الصحيح – من وجهة نظره – في شمال نيجيريا، شأنها في ذلك شأن الدعوة السلفية في شبه الجزيرة العربية.

وهكذا قضى الشيخ عثمان حياته مدافعاً عن السنة محارباً للبدعة ومجاهداً في سبيل الله لنشر الإسلام في بلاد الهوسا وغرب إفريقيا حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في عام ١٨١٧م، بعد أن أرسى دعائم إمبراطورية إسلامية كبرى حافظت على تراث الإسلام وحضارته في هذه البقعة من غرب إفريقيا، فيما أطلق عليها دولة سوكوتو (انظر الشكل رقم ٥). وبوفاة الشيخ عثمان انتقلت الخلافة إلى محمد بلو بن عثمان الذي تولى أمور هذه الإمبراطورية وظل يحكمها لمدة عشرين عاماً من ١٨١٧م حتى عام ١٨٣٧م (إبراهيم: ٢٠٠١: ١٦٠).

الشكل رقم (٥)

وهو عبارة عن صورة للشيخ عثمان بن فودي، وبجواره خريطة للإمبراطورية الإسلامية التي أسسها.

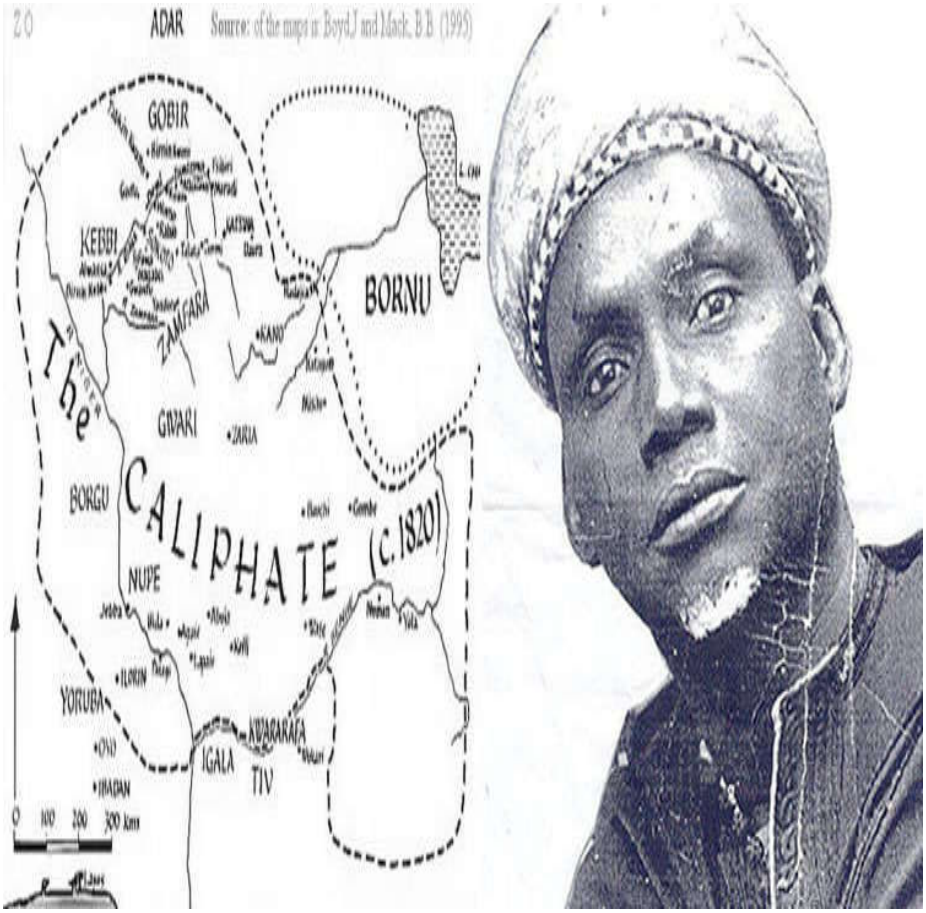

الحاج عمر الفوتي:

ومن أبرز العلماء الذين تأثروا بالحركة الإصلاحية التي قادها الشيخ عثمان بن فودي– هذا المجاهد الحاج عمر الفوتي (انظر الشكل رقم ٦) الذي ولد في قرية حلوار بالقرب من بودور Podor، على الحدود السنغالية الموريتانية عام ١٧٩٥م، وكان الحاج عمر هو الابن الرابع للشيخ سعيد الذي ينتمي إلى قبيلة توردوبي – وهي القبيلة التي ينتمي إليها الشيخ عثمان– الذين قاوموا الوثنية في هذه المنطقة، وبعد ذلك لعبت هذه القبيلة دورا في مقاومة التوسع الأوروبي بعد أن اعتنقت الإسلام، وقامت بنشره في المنطقة وصار أتباع هذه الجماعة أكثر الناس حماسا لنشر الدين الإسلامي (إبراهيم: ١٩٩٠: ٦٤).

نشأ الحاج عمر في بيئة دينية علمية مرموقة وسط علم ودين، وتميز بذكائه منذ صغر سنه، وحفظ القرآن الكريم ولم تتجاوز سنه الثالثة عشرة، كما درس اللغة العربية والتوحيد والفقه في بلده فوتاتورو.(عبيد الله: ٢٠١٣: ١٢٢، ١٢٣).

وفي عام ١٨١٤ ترك الحاج عمر منطقة فوتاتورو واتجه إلى مدينة (ساتينا Satina) في فوتاجالون، التي تبعد مئات الأميال عن مدينة حلوار. وفي هذه المدينة بدأ يكسب لقمة العيش من خلال تدريس القرآن الكريم والسنة الشريفة لأطفال القرى والمدن المجاورة. وظل هناك حتى بلغ من العمر واحدا وثلاثين عاماً.

وفي عام١٨٢٦ قام الحاج عمر برحلة ثقافية ودينية طويلة، بدأها بالذهاب إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج مع أخيه علي، وفي إحدى رحلاته إلى البلاد المقدسة التقى بالشيخ عبد الكريم النقيل، أحد علماء الطريقة التيجانية من فوتاجالون، حيث درس على يديه مبادئ هذه الطريقة، وذهب الحاج عمر معه إلى مدينة «حمد الله» العاصمة الجديدة لدولة ماسينا. وفي هذه المدينة توطدت علاقات الحاج عمر مع سكان ماسينا، الذين عهدوا إليه بنشر مبادئ الدين الإسلامي لأبناء المدينة ولأبناء الأسرة الحاكمة. (إبراهيم: ١٩٩٠: ٦٤، ٦٥).

رحلة الحاج عمر إلى الحج وأثرها في حياته الدعوية:

انتقل الحاج عمر من ماسينا إلى دولة الخلافة الإسلامية في سوكوتو، حيث قضى سبعة أشهر غادر بعدها المنطقة إلى فزان والسودان المصري في ذلك الوقت. وأخيرا وصل إلى مكة المكرمة عام ١٨٢٨م، حيث قابل هناك الشيخ محمد الغالي، أحد رفاق الشيخ أحمد التيجاني وخليفته في الحجاز. وفي الحجاز اكتسب الحاج عمر شعبية كبيرة (إبراهيم: ١٩٩٠: ٦٥).

ثم سافر الحاج عمر إلى القاهرة، ومنها إلى بلاد الحجاز مرة أخرى، حيث التقى بالشيخ محمد الغالي ثانية، وظل معه ثلاث سنوات أنهى فيها تعليمه، وحصل منه على الإجازة (الشهادة) التي تمكنه من تقلد منصب شيخ الطريقة، وبالتالي يصير من حقه إرشاد الناس إلى مبادئ الطريقة التيجانية لكل من يرغب في الانضمام إليها من المسلمين(إبراهيم: ١٩٩٠: ٦٥، ٦٦).

وكان من آثار رحلة الحج في حياة الحاج عمر الدعوية، أن ذهب إلى بلاد الهوسا، وأخذ يعظ الناس بالرجوع إلى عقيدة السلف (التجاني: ١٣٨٣هـ: ٤)، مما يؤكد على مدى تأثر الحاج عمر بمبادئ الدعوة الوهابية. وكذلك فقد دعا المسلمين إلى التمسك بالشريعة، ودعا الوثنين إلى اعتناق الإسلام،

فأقبل المسلمون عليه، وأقبلت وفود الوثنين تدخل الإسلام من كل جهة، وأقام المساجد، وبنى المعاهد (التجاني: ١٣٨٣هـ: ١٥).

ثم أقام في منطقة في غينيا متاخمة للسنغال ومالي، وهناك انضم إليه عدد كبير من الشباب المسلمين الذين وفدوا إليه للاستزادة من المعرفة، فكوَّن منهم جيشاً عرمرماً. وكان سبباً في إبعاد خطر النصارى (الدول الاستعمارية) عن غربي إفريقيا، حيث كان الأوروبيون يتاجرون مع أهل هذه المنطقة، ويحاولون مد نفوذهم السياسي والاقتصادي، وربما فرض النصرانية – دينهم – عليها (سيلا: ١٤٠٦هـ: ٧٨).

كما عمل الحاج عمر على نشر الإسلام في المناطق غير الإسلامية، وتصحيح ما انحرف من عقيدة المسلمين، وتطهيرها من الشوائب والخزعبلات والممارسات الغريبة والبعيدة عن الإسلام الصحيح. وكان يرى أن إحياء الإسلام لن يتم بالطريقة القادرية التي أصبحت فاترة، والتي تبالغ في التسامح مع الوثنية، وتتقاعس عن الجهاد المقدس. وكان يعتقد أنه لا بد من وجود قوة مادية رادعة ومنظمة، تقوم بمهمة حماية مكتسبات الإسلام، ورعاية شؤون المسلمين. (سيلا: ١٤٠٦هـ: ٧٩).

فمن خلال ما سبق يتضح مدى تأثر الحاج عمر بمبادئ الدعوة السلفية، لا سيما مؤلفاته الكثيرة التي أكدت على ذلك أيضاً، وطبقاً لما ذكره آدم بمبا – فإن هذه المؤلفات عبارة عن كتب ورسائل قصيرة، وأشعار ومنظومات تربوية في التصوف وتزكية النفس، ومعظم نتاجه العلمي أشعار منها: منظومة تذكرة الغافلين عن قبح اختلاف المؤمنين، وقصائد في المديح النبوي، وأرجوزة في العقائد، ومنظوم سفينة السعادة لأهل الضعف والنجادة. ومن كتبه: رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، وكتاب سيف الحق، وكتاب المقاصد السنية لكل موفق من الدعاة إلى الله، وكتاب هداية المذنبين إلى كيفية الخلاص من حقوق الله وحقوق العباد أجمعين. وفي هذه الكتب تنظير لمفهوم الهجرة ووجوبها في بلاد السودان، والعلاقة بين "دار الإسلام" و "دار الكفر" وأحوال المسلمين فيها، والقضايا المتعلقة بالجهاد وأحكام الولاء والبراء، وفقه الدعوة (الفوتي: ٢٠١٤: ١٦٣).

وكان من أهم ما دعا إليه عقب عودته من الأراضي المقدسة– الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين، حيث أكَّد على ذلك في منظومته الموسومة بتذكرة الغافلين عن قبح اختلاف المؤمنين، التي اشتملت على قصيدة موجهة إلى السلطان محمد بن عثمان بن فودي، والشيخ محمد الأمين الكانمي – كما أشار آدم بمبا– لمعالجة الخلاف الشديد الذي نشب بينهما، والذي كاد يهدد الوجود الإسلامي بمنطقة السودان الأوسط آنذاك، وينذر بذهاب ريح المسلمين وإضعاف شوكتهم، لأنه وصل إلى المواجهة المسلحة، فكان الحاج عمر الفوتي محايداً في عتابه لهما، وتذكيره إياهما بأهمية وحدة الصف الإسلامي، وقد كتب الله له التَّوفيق؛ فنجح في مسعاه، ووضعت الحرب أوزارها، وبادر الزعيمان إلى الصلح، ووجه الكانمي خطاب شكر إلى الفوتي، يشكره فيه على مبادرته الطيبة (الفوتي: ٢٠١٤: ١٦٥).

وجدير بالذكر أن الحاج عمر الفوتي قد قدّم لقصيدته بالحديث عن أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوب القيام به، مستدلاً بآيات من القرآن الكريم وأحاديث من السنة المطهرة قائلاً: "وقد رأينا أن

نجعل قبل المنظوم مقامة نذكر فيها بعض ما ورد في كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً"(الفوتي: ٢٠١٤: ١٨١).

ولعل الحاج عمر عندما وجد أن الخلاف قد احتدم بين السلطان محمد بن عثمان بن فودي، والشيخ محمد الأمين الكانمي، رأى أنه من الواجب عليه آنذاك، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن ثمَّ فقد نظم هذه القصيدة المكونة من ٢٠٦ بيتاً ؛ موضحاً فيها وجوب إصلاح ذات البين، قائلا في مطلعها(الفوتي: ٢٠١٤: ١٨٤):

الحمد لله الذي قد أوجبا إصلاح ذات البين ثم هذبا

ومؤكداً على حرمة سفك الدماء بغير حق حتى، ولو كانت هذه دماء غير مسلمة قائلاً (الفوتي: ٢٠١٤: ١٨٦):

نهى الحكيم عن قتال الكافرِ من قبل أن يُدعَى كفى للناظرِ

إن كان ذا في حق شخص كافرِ فانظر حقوق المؤمن بالقادرِ

فحرمة المؤمن أعلى وأجل من حرمة الكعبة عند الله جلَّ

ثم بيَّن مدى خطورة الاختلاف بين المؤمنين، وأنه قد يكون سبباً في إشعال نار الفتنة بينهم، قائلاً (الفوتي: ٢٠١٤: ١٨٤):

نقول أصل كل ما تقدما هو اختلاف المؤمنين فاعلما

فالاختلاف موجب التحاسد ومنه تأتي علة التحاقد

إذا تحاقدوا ودام الحقد تقاتلوا ودام فيهم وجدُ

وللوَجْدِ معان كثيرة لغة واصطلاحاً، أما عن معناه في اللغة، فقد ذُكر في معجم لسان العرب، أنه قد يأتي بمعنى "الغضب"(مجمع اللغة العربية: ٢٠٠٤: ٤٧٧٠)، وعرض صادق سليم صادق معنى "الوجد" الصوفي اصطلاحاً، قائلاً على لسان الإمام الصوفي أبي بكر الكلاباذي:"الوجد هو ما صادف القلب، من فزع أو غم." (صادق: ١٩٩٤: ٢٤)، ولعل هذا هو المعنى المراد في البيت الأخير. ومن ثمَّ أراد الحاج عمر من خلال أبيات هذه القصيدة، أن يحقق مبدأ من أهم مبادئ الدعوة، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

واستمر الحاج عمر محققاً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه كان يعتقد أن فكرة الإصلاح تتلخص في هذا المبدأ، كما دعا إلى تغيير جذري في النظام التعليمي عند المسلمين في السودان الغربي، وإلى تحسين أساسي في سلوكهم الخلقي، وفي حياتهم الروحية والمادية، وبهذا فقط يتمكنون من فهم الشريعة الإسلامية فهما دقيقا وتطبيقها تطبيقا سليماً ، فالتربية والتعليم هما الوسيلتان للوصول إلى هذه الغاية العظمى، فعن طريق التربية والتعليم يستطيع الإنسان أن يحصل على الفتوى والمعرفة الصحيحة للشريعة، ويتمكن من تطبيق قوانينها تطبيقا سليما طبقا لمذهب السلف الصالح (عبيد الله: ٢٠١٣: ١٣٩).

ومن الواضح أن المسألة الرئيسية التي شغلت بال الحاج عمر من سنة ١٨٣٠ –١٨٥٢م– كانت فكرة إقامة سلطنة في السودان الغربي بطريقة سلمية، إلا إنه يبدو أن الحاج عمر تخلى عن هذه النظرية

وتطوير مبدأ الهجرة وجهاد النفس إلى مرحلة استعمال القوة أي الجهاد بالسيف. ولقد أعلن الجهاد وأسس المراكز العلمية والمكاتب الإسلامية في كل من السنغال حيث مولده، وغينيا من حيث مقره (الدنجاراي)، ومالي من حيث مدينة (نيورو وكوناكري وسيكو). ومن زار هذه المناطق يجد آية من آيات آثاره باقية في هذه البلدان من الحصون القوية، ولا تزال هذه الحصون واقفة تحكي ماضي المجتمع الإسلامي في أيام الحاج عمر بن سعيد الفوتي، حيث توفي عام ١٨٦٤م، وخلفه ابنه المجاهد أحمدو شيخو، الذي سار على نهج والده في نشر الإسلام حتى توفي عام ١٨٩٨م في سوكوتو (عبيد الله: ٢٠١٣: ١٤١- ١٤٤).

وبوفاة الحاج عمر طُوي آخر فصل من تاريخ مملكة التكرور التي دامت لأكثر من ألف عام، وحكمت أراضي شاسعة من غرب إفريقيا غطت ما يعرف اليوم بالسنغال ومالي وغانا (تكرور/https://ar.wikipedia.org/wiki).

الخاتمة:

كان لرحلة الحج دور كبير في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، وقد ظهر هذا الدور بوضوح من خلال رحلات الحج ،التي قام بها زعماء غرب إفريقيا وعلماؤها، حيث أتاحت هذه الرحلات للحجيج فرصة التعرف على ثقافات الشعوب الأخرى، وتحصيل المزيد من علم العلماء والتأثر بدعوتهم، ومن هؤلاء حكَّام مملكة مالي ومنهم موسى ديجيو، ومنسا موسى، وملوك مملكة الصنغاي، ومن أشهرهم أسكيا الحاج محمد الأول، وهناك العديد من الملوك والأمراء والعلماء، الذين قاموا برحلة الحج من غرب إفريقيا، بهدف أداء الفريضة، وتحصيل العلم الديني الصحيح من خلال لقائهم بعلماء الحجاز، ثم نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة في بلادهم.

ومن هؤلاء العلماء الشيخ عثمان بن فودي، الذي أسس إمبراطورية الفولاني في بلاد الهوسا، وغرب إفريقيا، وخلفه ابنه محمد بلو. ومنهم كذلك الحاج عمر الفوتي، الذي أسس إمبراطورية التكرور، التي غطت ما يعرف اليوم بالسنغال ومالي وغانا، وخلفه ابنه أحمدو شيخو. وقد خرج هذا البحث بالنتائج التالية:

على الصعيد الداخلي، أسهمت رحلة زعماء غرب إفريقيا إلى الحج في جلب التجار والعلماء والفقهاء إلى دولهم، وبناء المساجد والمنارات والمدارس.

وعلى الصعيد الخارجي، أسهمت رحلة الحج في إقامة علاقات ودية مع زعماء دول شمال إفريقيا.

تأثر علماء غرب إفريقيا بمبادئ الدعوة السلفية، وظهر ذلك واضحاً من خلال دعوتهم ومؤلفاتهم الشعرية والنثرية.

أسهمت رحلة علماء غرب إفريقيا إلى الحج في إتقانهم لفنون الدعوة، فأقبل على دعوتهم المسلمون وغير المسلمين.

كانت رحلة الحج سبباً في ترسيخ العقيدة الإسلامية في قلوب شعوب غرب إفريقيا، حيث تصدوا لإبعاد خطر الدول الاستعمارية عنهم، إذ كانوا يتاجرون معهم، ويحاولون مد نفوذهم السياسي والاقتصادي، وربما فرض النصرانية عليهم.

مراجع البحث

أولاً: المراجع العربية

إبراهيم، عبد الله عبد الرازق ، المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، عالم المعرفة، العدد ١٣٩، ١٩٩٠م، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

إبراهيم، عبد الله عبد الرازق، الخليفة محمد بلو ودوره الحضاري في غرب إفريقيا، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، قسم اللغات، أعمال المؤتمر الدولي "اللغة والثقافة في أفريقيا"، ٢٠٠١م، ١٦٠-١٧٢.

ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، لبنان، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء السادس،١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

ابن فودي، عثمان، إحياء السنة وإخماد البدعة، نيجيريا، صكتو، الناشر الحاج عبد الله اليسار، الطبعة الثانية، دت.

إبراهيم، وائل نبيل، الوصايا الشعرية في الأدبين السواحيلي والفولاني في العصر الحديث، دراسة مقارنة، مصر، القاهرة، جامعة الأزهر، كلية اللغات والترجمة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لقسم اللغات الإفريقية، عام ٢٠٠٦م.

التجاني، محمد الحافظ، الحاج عمر الفوتي سلطان الدولة التجانية بغرب إفريقيا، شيء من جهاده وتاريخ حياته، القاهرة، الزاوية التجانية الكبرى، ١٣٨٣هـ.

العزاوي، عبد الرحمن حسين ، أصول لبحث العلمي، عمان، دار الخليج، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

الغنيمي، عبد الفتاح، أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في غرب إفريقيا، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مركز البحوث، بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الثاني، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ٣٤٣-٣٦٨.

الفوتي، عمر بن سعيد، تذكرة الغافلين عن قبح اختلاف المؤمنين، تحقيق: بمبا، آدام، مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد ٨٨، ديسمبر ٢٠١٤م، الإمارات العربية المتحدة، دبي، قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.

الكرباسي، محمّد صادق محمّد، معجم المشاريع الحسينيّة، لندن، المملكة المتحدة، دائرة المعارف الحسينية، المركز الحسيني للدراسات، الطبعة الأولى، الجزء الأوّل، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.

الإلوري، آدم عبد الله، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، مصر، الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

باري، عثمان برايما، جذور الحضارة الإسلامية الغرب الإفريقي، القاهرة، دار الأمين للطباعة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

باري، محمد فاضل علي& كريدية، سعيد إبراهيم، المسلمون في غرب إفريقيا؛ تاريخ وحضارة، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.

بازينة، عبد الله سالم، انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، القاهرة، المجموعة العربية للتدريب والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

جاد الحق، جاد الحق علي، بيان للناس، مصر، القاهرة، مطبعة الأزهر الشريف، الجزء الثاني، د.ت.

ذهني، إلهام محمد علي، جهاد الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي ١٨٥٠- ١٩١٤، الرياض، دار المريخ للنشر، ١٩٨٨م.

سعد، مصطفى، أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حركة عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب إفريقيا، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مركز البحوث، بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الثاني، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ٤٢٣-٤٤٤.

سيلا، عبد القادر محمد، المسلمون في السنغال معالم الحاضر وآفاق المستقبل، دولة قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي، ج ٧: العهد المملوكي، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٠م.

صادق، صادق سليم، المصادر العامة للتلقي عند الصوفية عرضاً ونقداً، المملكة العربية السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى،١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.
عبيد الله، ابن عمر عمر، تجربة الإصلاح في فكر الحاج عمر بن سعيد الفوتي في بلاد السوداني الغربي، مجلة دراسات إفريقية، العدد٥٠ ديسمبر ٢٠١٣م، ١٢١–١٤٩، الخرطوم، السودان، جامعة إفريقيا العالمية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية.
غلادنت، شيخو أحمد سعيد ، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢م.
مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م، مادة "وجد".
محمّد، عبد الصمد عبد الله، أضواء على الشعر في غربي إفريقيا (السنغال ونيجيريا)، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠١م.
مؤنس، حسين، أطلس التاريخ الإسلامي، القاهرة، دار الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

ثانياً المراجع الأجنبية

Abubakar B. Muhammad, GimɗeFulfulde ɗe Sheekhu Usmaanu Ɓii Foodiye e Woɗɓe Moodiɓɓe,Wuudu Widitaago Demde Naajeriya Jaami'aare Baayero, Kano, 1992.
Albert Gérad, African Languages Literature, Longman group limited, Longman House, Burnt Mill, Harlow, Essex, UK., First published, 1981.
Gladys G. Buck, Josephine Buck Jones, The History of Mali: Ancient Africa, Lorenz Educational Press, Grades 5-9, 2004.